مقدمة

شنت إسرائيل في ١٢ تموز ٢٠٠٦ على لبنان عدواناً استهدف منشآته وبناه الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وخلّف معاناة بشرية هائلة وقلقاً وكرباً نفسياً عميقين. والحرب التي استمرت ٣٣ يوماً كانت على قدر خاص من الضراوة لأنها: ١) اعتمدت على الطيران (القصف الجوي الإسرائيلي)، ٢) اتخذت المواقع المدنية هدفاً لتحقيق أهداف عسكرية، ٣) جرت تغطيتها إعلامياً بصورة حيّة وعلى مدار الساعة، و٤) شملت لبنان كله.

كان الاعتماد على القصف الجوي كقوة ضاربة وليس على سلاح البر، من أهم سمات حرب تموز ٢٠٠٦. ففي الحرب التقليدية التي تقوم على المعارك البرية والتقدم الميداني، يمكن التكهّن بمناطق الأمان والخطر وبالحدود ما بينها على ضوء ما يتوافر من معلومات حول إحداثيات الأطراف المتقاتلة. أما في حرب تموز ٢٠٠٦، فقد بقيت العمليات البرية محصورة في مناطق ضيقة جداً على الحدود اللبنانية الإسرائيلية، بينما كان الطيران الحربي هو الذي يقوم بمهمة الحرب الكبرى، وذلك استناداً إلى «استراتيجية جوية» تبنتها إسرائيل في شن الحرب على لبنان. واستهدفت الطلعات الجوية بنى تحتية عسكرية ومدنية على حد سواء ولم توفر الطرقات العامة والجسور ومحطات الكهرباء وخزانات المياه وخطوط الإمداد والتواصل. كما استهدفت مصانع ومعامل ومزارع ومحطات وقود وجنازات ومبان آهلة بالسكان الخ، وهي أهداف لا يستطيع أحد التكهّن بها. وبلغت كثافة القصف الجوي وتنوع الأسلحة المستخدمة وقدرتها على القتل والتدمير (مقاتلات حديثة ومدرعات وبوارج حربية متطورة وصواريخ تسييرية ذكية وقنابل عنقودية وأسلحة انشطارية وقنابل فراغية فوسفورية محظورة بموجب الاتفاقيات الدولية) مستويات غير مسبوقة في أي حرب ماضية.

وأدت هذه الوجوه المتضافرة لحرب تموز ٢٠٠٦ إلى مقتل ألف وثلاثماية شخص (ثلثهم من الأطفال) وجرح أربعة آلاف شخص. كما دمرت عشرات ألوف المنازل والمؤسسات والمباني والمدارس والجسور والمواقع، وهجّر حوالي مليون شخص من مكان إقامتهم، فأقاموا في مناطق أخرى، في مدارس وساحات وشوارع وبيوت وخيم، في لبنان وخارج لبنان. وقدّرت الوحدات السكنية المدمرة كلياً بـ ١١٥ ألفاً، فيما أصيبت ٣٥ ألف وحدة سكنية بأضرار جزئية. وأدت الحرب إلى تدمير ١٥٠ جسراً و٣٠ مرفأ أو محطة كهرباء، فضلاً عن تدمير ٧٠٠ كلم من الطرقات المعبدة وتدمير ألف مصنع ومزرعة ومتجر تدميراً كلياً، ما أدى إلى تسريح أعداد من العمال والموظفين وتسبب بتفاقم نسبة البطالة.

وكان لإقامة العائلات رجالاً ونساءً وأطفالاً في أمكنة أعدت لهم على عجل، لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً، آثار أيضاً. فكانت هذه الإقامة تسبب ضغطاً يومياً على جميع أفراد العائلة، ليس بسبب نقص الطعام والماء فحسب، فقد بذلت جهود متضافرة كبيرة لتأمين هذه الحاجات، بل بسبب اضطراب الحياة الخاصة لكل أسرة، وإحداث بلبلة في العلاقة الأسرية وفي طقوسها اليومية. ثم بعد توقف إطلاق النار، وعودة المهجرين إلى بلداتهم وقراهم، وجد الكثيرون منهم ماضيهم وكأنه قد تبخّر. فمن كان يسكن في بناية في الضاحية الجنوبية ووجد أنها سوّيت أرضاً، لم يفقد ممتلكات فحسب (مبنى ومفروشات) بل فقد المكان الذي ولد وترعرع فيه وله فيه ذكرياته كلها، فقدَ حتى الصور التي تذكّره بها: أيام العرس، ولادة الأطفال، ونموهم وشبابهم، وصور أخرى غالية.

وكان للوجه الإعلامي للحرب قوة جعلتها تترك أثراً حتى عند الذين كانوا بعيدين عنها. فقد تجنّدت وسائل الإعلام الأرضية والفضائية، اللبنانية والعربية، لتغطية هذه الحرب لحظة بلحظة وعلى مدار الساعة. ونشرت كل محطة مراسلين ميدانيين ينقلون الصور الحية للقصف والدمار والموت، بما في ذلك مشهد صاروخ ينطلق ثم يهبط. كان معظم المدنيين كباراً وصغاراً يشاهدون ما يحدث على امتداد اليوم، يتنقلون بين المحطات بحثاً عن الأخبار وعن التحليلات، سعياً لمعرفة ما يجري ولفهمه ولإعادة صياغة توقعاتهم وإعادة النظر في مخاوفهم.

وإذا كان القصف المكثف تركز على الجنوب وضاحية بيروت الجنوبية وسهل

البقاع، فإن الحرب امتدت على كامل المناطق اللبنانية عملياً. وهذا ما أدى على مر أيام الحرب إلى ارتفاع الشعور بالخطر كمعدل عام، رغم الفروق الكبيرة بين منطقة وأخرى، وإلى زيادة الحاجة إلى التكهّن بكل احتمالات القصف في كل مكان من لبنان. كما أن الشعور بالخطر بات يلازم أي تنقل. وأصبح عبور جسر أو الاقتراب من شاحنة أو المرور بجوار موقع للجيش اللبناني أو محطة إرسال بمثابة عمل محفوف بالمخاطر. أما في المناطق المستهدفة بكثافة، فكان يخيّم رعب متواصل بفعل هدير طائرات الاستطلاع (MK) المتواصل طوال النهار والليل، هدير كان يضع الأطفال تحت رحمة مخاوفهم والخطر المحدق بهم. ما حصل على الأرض طاول بطريقة ما جميع الناس من كل الأعمار وفي كل المناطق اللبنانية، مثيراً القلق والخوف والصدمة.

من هنا كان السؤال الذي طرحته هذه الدراسة في البداية:

ما وقع التعرض لمثل هذا العنف وهذه الحرب المركزة؟ كيف تنعكس تجربة هذا القدر من الموت والدمار والنزوح على وضع الناس النفسي؟ والأهم كيف عاش الأطفال والشباب، أحداثاً صادمة على قدر غير مسبوق من العنف والاتساع مع العلم بأن أحداً لم يكن بمنأى عن الحرب، حتى من كان يعيش في مناطق «مضمونة» سياسياً؟

الدراسات حول الأطفال والحرب في لبنان

لم تكن حرب تموز ٢٠٠٦ مع الأسف حرباً فريدة بالنسبة للبنان. فتاريخ لبنان الحديث حافل بالصراعات الدموية المتكررة نتيجة تركيبته السياسية الهشة، يزيدها هشاشة تدخل قوى خارجية في شؤونه الداخلية. فقد عرفت «الجمهورية الهشة» (Hudson, 1968) منذ استقلالها عام ١٩٤٣ سلسلة من الحروب الداخلية العنيفة والاجتياحات الخارجية جعلت منها «جمهورية منكوبة». شهد لبنان في العام ١٩٥٨ حربه الأهلية الأولى بعد استقلاله حيث قامت انقسامات وخلافات حادة بين طوائفه المتناحرة. واندلعت في العام ١٩٧٥ حرب استمرت حتى العام ١٩٩٠. وقد تداخل في هذه الحرب صراع الطوائف على السلطة، والوجود الفلسطيني في لبنان،

والمصالح الإقليمية والدولية. واجتاحت إسرائيل جنوب لبنان في العام ١٩٧٨، وبقيت في «شريط» منه حتى العام ٢٠٠٠. كما اجتاحت إسرائيل لبنان بما في ذلك عاصمته بيروت في العام ١٩٨٢.

ولا شك أن الصراع الطويل حمل على تركيز البحث على تأثير الحروب في الأطفال.

أجرى ديركاربتيان (Der-Karabetian, 1984) في إحدى الدراسات السابقة حول الأطفال المعرضين للحرب في لبنان مقارنة بين ردود فعل ٥٢ طفلاً أرمنياً عاشوا الحرب الأهلية اللبنانية بين ١٩٧٥ و١٩٧٧ في بيروت وردود فعل ٣٩ طفلاً أرمنياً لم يعيشوا الحرب. واستندت الدراسة إلى مقابلات مسبقة الإعداد ركزت على أعراض الضغط والأفضليات المتعلقة بالشخصية ومحتوى الأحلام واختبارات إكمال الجمل. وأظهرت النتائج أن المجموعة التي تعرضت للحرب أفادت بوتيرة أكبر ممن لم يتعرضوا للحرب عن أعراض كتعرق الراحتين والتعب والإحساس بالوحدة والحزن. وفي المقابل، أفادت هذه المجموعة بوتيرة أقل عن أحلام مزعجة وكبت مخاوف ومشاجرات واشتباه بسماع همس واعتقاد بأن الأطفال الآخرين أكثر سعادة وتكتّماً حول مخاوفهم، في حين لم يسجل أي اختلاف بين المجموعتين على صعيد الإفادة عن العديد من الأعراض المرضية كضيق التنفس والأرق والصداع والعصبية والخوف من الدم والخوف من الظلمة والإحساس بالسأم والعجز وبأن الآخرين لا يفهمونهم. كما لم يسجل أي فرق بين المجموعتين من حيث الإقرار الإجمالي بالأعراض. وسجلت المجموعة التي تعاني من ضغط الحرب نسبة أعلى من ردود فعل القتال أو الهروب المضمرة. واعتبرت ردود الفعل هذه بمثابة آلية تكيف يمكن أن تساعد على التخفيف من حدة التأثير الطاغي لضغط الحرب. وبالرغم من أن العينة كانت محدودة والتجارب غير موثقة بشكل واف، فإن هذه الدراسة تؤكد فرضية أن آثار الحرب كانت واسعة النطاق ومتشعبة.

وأجرت شمينتي وزملاؤها (Chemienti et al., 1989) تحقيقاً على عينة واسعة (ن=١٠٣٩) من الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين ثلاث وتسع سنوات لدرس تجاربهم في الحرب وسلوكهم الانفعالي والاجتماعي استناداً إلى أجوبة أمهاتهم. وأظهرت نتائج الدراسة أن ٣٠% من الأطفال عانوا من موت فرد من العائلة ومن النزوح القسري وتدمير منزلهم أو شاهدوا وفاة. وارتبطت هذه التجارب بسلوك

عدواني وأعراض اكتئاب. ومن السمات المهمة لهذه الدراسة تصنيفها وتوثيقها لحالات التعرض إذ إن التجارب لا تكون مماثلة عند جميع الأطفال.

شكل تصنيف حالات التعرض للحرب وتوثيقها محور دراستين أجراهما مقصود وعابر (Macksoud, 1992; Macksoud & Aber, 1996). وأفادت مقصود في دراسة على عينة من الأطفال (ن=٢٢٢٠) ما بين الثالثة والسادسة عشرة من العمر المقيمين في بيروت الكبرى، ولاحقاً في دراسة على عينة من الأطفال والشباب (ن=٢٢٤) ما بين العاشرة والسادسة عشرة من العمر، أن صدمات الحرب التي يعاني منها الأطفال تتفاوت بشكل دالٍ من حيث العدد والنوع بحسب العمر والجنس وعمل الأب ومستوى الأم التعليمي، مع تسجيل معدل ست صدمات حرب تقريباً للطفل خلال حياته، بعضها تكرر عدة مرات. وإلى تأكيدها على أهمية نوع التعرض للحرب ووتيرته، أبرزت هذه الدراسة الحاجة إلى تقييم الخصائص الاجتماعية الديموغرافية لدى توثيق حالات التعرض هذه.

وفي مسعى لفهم تأثير الحرب في أطفال لبنان بشكل أوفى، أجرى فاريل وعسل (Assal & Farrell, 1992) عام ١٩٨٩ دراسة إتنوغرافية على العائلة واللعب والمدرسة في زمن الحرب الأهلية. وكان الهدف الرئيسي للدراسة إضفاء مغزى على الأحداث التي تتخلل حياة الأطفال واليافعين وسط الحرب وأهوالها. واقتصرت الدراسة على مراقبة المشاركين في عدد من مدارس سهل البقاع ومنطقة المتن وجبال الشوف. أظهرت الدراسة أنه بالرغم من نبذ الأطفال والمراهقين للسياسة ومن إحساسهم بالهول والرعب حيال الحرب، إلا أن دوامة الفقر الناتج عن الحرب أرغمتهم على الانضمام إلى الميليشيات وخوض المعارك، وذلك من أجل تكوين هويتهم وكوسيلة للسيطرة على إحساسهم بالرعب والقضاء على الرتابة والسأم. وتكمن أهمية تلك الدراسة في أنها سعت للكشف عن كيفية وقوع الأطفال والشباب ضحايا بانضمامهم إلى القتال كوسيلة لتحسين صورتهم عن أنفسهم.

في منتصف الثمانينات قام فريق من الباحثين في الجامعة الأميركية في بيروت بدراسة أوضاع الأطفال والشباب في لبنان خلال الحرب، وذلك بدعم من الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية. وقد شمل الكتاب المنشور بعنوان «أحوال الأطفال في لبنان في زمن الحرب» (Bryce & Armenian (Eds.), 1986) مجموعة من الدراسات على عينات متفرقة. إحداها (Day, 1985) أجريت على عينة من ٢٨٠ طفلا في بيروت

من فئتين عمريتين (٦-٧ سنوات) و(١١-١٢ سنة). وبينت نتائجها أن الفتيات الأكبر سنًا سجلن المتوسطات الحسابية العليا لسمة القلق فيما سجل الصبيان متوسطات حسابية أعلى من متوسطات البنات في كافة محاور الأداة التي اعتمدت لقياس الاضطرابات السلوكية (وتتضمن ١٩ محورًا). وفي دراسة أخرى (Saigh, 1986)، أجريت على عينة من ٦٩١ تلميذاً (١٠-١٢ سنة)، برز السلوك التخريبي والعدواني عند الصبيان أكثر من البنات. أما على صعيد الأعراض الاكتئابية، فقد برزت أكبر الفروق بين المدارس.

كما قام فريق إدراك (Karam et al., 2007) بدراسة الأوضاع النفس اجتماعية للأطفال والشباب في الجنوب والضاحية الجنوبية لبيروت بعد حرب تموز ٢٠٠٦. شملت العينة ٧٠٩ مراهقين تراوحت أعمارهم بين ١٢ و١٨ سنة. من جملة النتائج تبين أن ٥٧,٢% من أفراد العينة أظهروا أعراض خوف وقلق من الحالة الراهنة في البلاد و٥٤,١% قلق الانفصال أو الابتعاد عن أحبتهم. أما في ما يتعلق بأعراض ما بعد الصدمة، فقد بلغت نسبة سرعة الاستثارة ٢٥,٦%، محاولة عدم استرجاع ذكريات الحرب ٢٨%، استرجاع صور الحرب ١٩,٨%، مشاكل النوم ١٦,٦%. وبلغت نسبة من سجلوا أعراض ما بعد الصدمة ١٥,٤%. وقد صنفت العينة وفقًا للصعوبات التي عانى منها الطلبة: ٣٣,٤% لم يعانوا من الصعوبات قط، ٣٦,٧% صعوبات خفيفة، ٢٧,١% متوسطة و٦,٩% حادة (منهم ٤٩,١% استجدت الصعوبات لديهم بعد حرب تموز ٢٠٠٦). ظهرت أيضًا من خلال التحليل علاقة إحصائية دالة بين عدد الحوادث التي تعرض لها المراهق خلال الحرب وارتفاع مؤشرات القياس وعدد الأعراض.

العبر المستخلصة

يمكن أن نستخلص من هذه الدراسات على الأطفال والشباب اللبنانيين ومن دراسات حول الحرب أجريت في بلدان أخرى من الشرق الأوسط، عِبراً مهمة حول الآثار النفسية لصدمات الحرب. ومن هذه العِبَر أن حالات التعرض لا تتساوى كلها من حيث الوتيرة والتأثير. فالخصائص غير المسبوقة لحرب تموز ٢٠٠٦ المذكورة أعلاه تتطلب توثيق أنواع تعرض أطفال لبنان وشبابه لصدمات الحرب ووتيرة هذا التعرض. وهذا التوصيف مهم إذ إن أنواعاً مختلفة من التجارب يمكن أن ترتبط

بأنواع مختلفة من النواتج. وتوافر دراسات سابقة أجريت في المنطقة يؤكد على أن حرب تموز ٢٠٠٦ هي حدث فظيع في بلد له تاريخ من الحروب والأحداث الصادمة. لقد عاش لبنان منذ العام ١٩٥٨ عدداً من الحروب الداخلية والاعتداءات الإسرائيلية. وما بين هذه الحروب كانت الحوادث الأمنية لا تغيب تماماً. كذلك فإن هذا البلد شهد منذ ١٤ شباط ٢٠٠٥ سلسلة من الاغتيالات كان لها صدى عميق لدى شرائح واسعة من السكان، وكان أبرزها اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري. كما أن الاشتباكات الدامية التي اكتسحت لبنان بشكل مباغت في ٧ أيار ٢٠٠٨ ليست إلا مظهراً جديداً من مظاهر الصراع المزمن الذي يدور في لبنان وهي تزيد من حدة الضغط على اللبنانيين وتحديداً الأطفال والشباب منهم. وبالتالي، فإن العبرة الثانية من هذه الدراسات هي أن العديد من الأطفال وعلى الأخص الأحداث، قد يكون لهم سجل من حالات التعرض السابقة والمتواصلة. وهذه التجارب الماضية قد تؤثر في مخاطر تعرضهم وقد تحدد ردود فعلهم. والعبرة الثالثة المستخلصة هي أن فهم تأثير صدمات الحرب يمر عبر تقييم مروحة واسعة من الأعراض الانفعالية والسلوكية والظروف النفسية. وإن كان اضطراب ما بعد الصدمة هو الناتج النفسي الذي تناوله العدد الأكبر من الدراسات، إلا أنه قد لا يكون النتيجة الوحيدة أو الأبرز للحرب لدى الأطفال والشباب. فالدراسات الحالية على الأطفال تبقى ضمن نطاق النواتج التي سبق وتم تقييمها. والعبرة الرابعة هي أن العوامل الاجتماعية الديموغرافية يمكن أن تؤثر في التعرض وفي ردود الفعل التالية بفعل ارتباطها تحديداً بالموقع، حيث أن شدة الهجمات في حرب تموز ٢٠٠٦ تفاوتت بين مختلف المناطق. إن الطفولة والحداثة مرحلتان مفصليتان وحاسمتان في مسار تشكل هوية الفرد وتصوره للعالم ولا سيما على صعيد الإحساس بالأمان في عالمه. وينبغي من أجل فهم آثار الحرب الأخذ بالتفاوت في الأعمار الذي يعبّر عن مراحل مختلفة من النمو. كما أُثبت سابقاً أن عوامل ديموغرافية أخرى كالجنس والخصائص الاجتماعية الديموغرافية للأسرة لها تأثير على صعيد التعرض للصدمات وينبغي بالتالي أخذها بالاعتبار.

الدراسة

كان هدف الدراسة تقييم الوضع النفسي للأطفال والشباب في لبنان بعد حرب

تموز ٢٠٠٦، فكان من الضروري من أجل ذلك وعلى ضوء العِبر المستخلصة، تطوير أداة قياس تسمح لنا بتقييم أنواع التعرض لصدمات الحرب ومداه. غير أن حصر حالات التعرض بحرب تموز ٢٠٠٦ لم يكن كافياً لفهم أوضاع الأطفال والشباب بل توجب علينا أيضاً تقصي إمكانية وجود حالات تعرض سابقة. كما أن لبنان كان يمر بعد حرب تموز ٢٠٠٦ وحتى إجراء الاستقصاء الميداني للدراسة (آذار ٢٠٠٧) بأزمة سياسية حادة تطورت أحياناً (ولا سيما في ٢٣ و٢٥ كانون الثاني) إلى أحداث أمنية. وفي هذه الأحداث عاش سكان بعض الأحياء والبلدات جواً من المخاوف والخطر. وهذا ما حملنا على تضمين أداتنا حالات التعرض السابقة لحرب تموز ٢٠٠٦ والأحداث التي وقعت خلال الحرب وبعدها. ويعرض الفصل الثاني بشكل مفصّل عملية تطوير مقياسنا لحالات التعرض للصدمات والتثبت من صلاحيته.

وكان من المفيد لفهم النتائج في بيئات محددة وتفسيرها، استخدام أدوات جرّبت في أماكن أخرى وطبّقت على شعوب أخرى، بحيث يمكن إجراء بعض المقارنات. واستعنا في هذا السبيل بالدراسات المماثلة التي أجريت على الأطفال في الكويت بعد حرب الخليج. وجرى تعديل عدة أدوات كانت قد ترجمت إلى العربية لاستخدامها في الدراسة الكويتية، حتى تتلاءم مع الثقافة اللبنانية. وهي ثلاث أدوات تقيس أعراض ضغط ما بعد الصدمة Post Traumatic Symptoms، والقلق Anxiety، والإحساس بالضغط Perceived Stress. وتعرض هذه الأدوات في الفصل الثالث.

وعمدنا، آخذين بالدروس المستخلصة، إلى توسيع نطاق النواتج سعيا لتحديد مقياس نفسي يوفر معلومات تتخطى الضغط والقلق والصدمة. وكانت «قائمة الشخصية للشباب» Personality Inventory for Youth (PIY) أداة واعدة بهذا الصدد إذ إنها تقيّم مشكلات تشمل محاور عدة: ضعف الأداء المدرسي والذاكرة Poor Achievement and Memory، الصعوبات التعلمية Learning Problems، التشتت الذهني والحركة المفرطة Distractibility and Over activity، الاندفاعية Impulsivity، فقدان التحكم Dyscontrol، النزاع بين الأهل والأولاد Parent-

Child Conflict، الأعراض النفسية الجسدية Psychosomatic Syndrome، التوتر العضلي والقلق Muscular Tension and Anxiety، الخوف والهم Fear and Worry، الاكتئاب Depression، العزلة Isolation، الصراع مع الأقران Conflicts with Peers. غير أن اختيار هذه الأداة طرح مشكلات عدة، منها الحاجة إلى الترجمة، وضرورة تخفيض عدد البنود. ويصف الفصل الرابع نتائج استخدام هذه الأداة ويعرض الخطوات التي اتخذت لمعالجة المشكلات التي ظهرت. كما يعرض الخصائص السيكومترية التي تم التوصل إليها. ويعرض الفصل الخامس الصيغة المعدّلة لهذه الأداة والخاصة بالأطفال الأصغر سناً مع المعلومات السيكومترية المتصلة. وخصّص الفصل السادس تحديداً لمقياس مناسب لأطفال الروضة، ويتضمن هذا المقياس سبعة محاور هي رد الفعل العاطفي Emotionally Reactive، القلق/الاكتئاب Anxious/Depressed، الشكاوى الجسدية Somatic Complaints، الانسحاب Withdrawal، مشاكل النوم Sleep Problems، مشاكل الانتباه Attention Problems والسلوك العدواني Aggressive Behavior.

وهكذا بلغ عدد الأدوات التي استخدمت في الدراسة سبع أدوات، واحدة تقيس مدى التعرض لحرب تموز ٢٠٠٦، وست تقيس الأحوال النفسية للأطفال والشباب في المراحل التعليمية المختلفة.

ومن أجل فهم تأثير الحرب في بيئة نمو ما، كان لا بد من أن تتناول الدراسة أطفالاً وشباباً من صف الروضة إلى الصف الثاني عشر. وتقرر أن يكون الجمهور المستهدف هو تلامذة المدارس وأن يجري تمرير الأدوات المختارة في الصفوف، ذلك أن تلامذة المدارس يشكلون الغالبية الساحقة للأطفال والشباب في العمر الممتد بين ٣ سنوات و١٨ سنة. تصل نسبة الالتحاق المدرسي في لبنان إلى ٩٨,٦% لدى الفئة العمرية ٥-٩، و٩٥,٢% لدى الفئة العمرية ١٠-١٤ و٧١,١% لدى الفئة العمرية ١٥-١٩ (وزارة الشؤون الاجتماعية وإدارة الإحصاء المركزي، ٢٠٠٦). وجرى تطوير خطة بناء العينة بمساعدة مستشار إحصائي، استناداً إلى طريقة العينة الطبقية وأوزان المعاينة. وكل هذه المراحل مفصّلة في الفصل الأول.

كان لا بد قبل تطبيق الأدوات لتحقيق هدف الدراسة، من تجربتها وفحصها على أرض الواقع. بدأ هذا الفحص التجريبي مبكراً، حتى قبل أن يتم تقليص

«القائمة». وقد تم ذلك في إحدى المدارس. وفي مرحلة لاحقة تمّ التجريب في مدرستين. وبعد اكتمال الأدوات جميعاً وإجراء التعديلات تمّ التجريب لمرة ثالثة في ثماني مدارس: اثنتان في البقاع، اثنتان في الجنوب، اثنتان في الشمال، واثنتان في بيروت والضاحية الجنوبية. وبلغ العدد الإجمالي للطلبة الذين شاركوا في هذه المراحل التجريبية ٧٨٥ طالباً وطالبة. وكانت المعلومات في كل مرة تدخل إلى الحاسوب ويجري تحليلها إحصائياً، أداة أداة، مكوناً مكوناً، وسؤالاً سؤالاً، من حيث المصداقية validity والاتساق consistency. كما درست الارتباطات الإحصائية بين المكونات، وبين الأوضاع النفسية والمتغيرات المدروسة (الديموغرافية والمتعلقة بالتعرض للحرب). وقد أظهرت هذه التجارب ضعفاً في عدد من الأسئلة، فجرى تعديلها أو إلغاؤها، تباعاً، بالانتقال من تجربة إلى أخرى. ويعرض الفصل الأول مرحلة تجريب الدراسة ميدانياً.

استغرق إنجاز المرحلة التحضيرية للدراسة أربعة أشهر ونصف، عمل خلالها فريق الدراسة (اللجنة العلمية) بصورة متواصلة مستعيناً بلجنة استشارية موسعة كانت تجتمع دورياً للتعليق على كل التطورات والمسائل والخيارات وتقديم التغذية الراجعة. واستخرجت النتائج الرئيسية في صيف ٢٠٠٧ وجرت مراجعة هذه النتائج في أيلول ٢٠٠٧. يحتوي هذا الكتاب على وصف للمنهجية المستخدمة في جمع البيانات وعلى عرض النتائج وتحليلها تباعاً بالنسبة لكل موضوع من مواضيع الدراسة على حدة، ويحاول أن يقدم صورة عن مدى مساهمة الأحداث الصادمة المتضافرة مع حالات التعرض السابقة والعوامل الاجتماعية الديموغرافية، في تفسير الوضع النفسي لأجيالنا الصاعدة، على أمل أن تشكل نتائج دراستنا حافزاً للسلام.

شملت هذه الدراسة عينة ممثلة للأطفال والشباب أخذت من كل لبنان. أي أنها لم تستهدف الذين تعرضوا للحرب فحسب. والفكرة هنا هي مسح الأحوال النفسية للأطفال والشباب، وإجراء مقارنات داخل العينة بين الذين تعرضوا للحرب والذين لم يتعرضوا لها، بين مجموعات من الأطفال والشباب طبقاً لمتغيرات اجتماعية وديموغرافية. وبالتالي أصبح السؤال البحثي لهذه الدراسة ثلاثي الأبعاد: ما أحوال الأطفال والشباب النفسية في لبنان؟ ما العلاقة بين هذه الأحوال ومدى التعرض لحرب تموز ٢٠٠٦؟ ما العلاقة بين هذه الأحوال وعدد من العوامل الاجتماعية والديموغرافية؟

مركز خدمات نفسية

انطلقت الدراسة من الرغبة في فهم تأثير حرب تموز ٢٠٠٦ في الأطفال والشباب. لكنها انطلقت أيضاً من طموح آخر لم نأت على ذكره حتى الآن ألا وهو إنشاء مركز لتقديم خدمات الدعم النفسي في لبنان. هذا الطموح الثاني وضعت له منهجية أخرى وكوّن له فريق آخر. وبالتالي فإن فائدة نتائج الدراسة لم تقتصر على الناحية العلمية بل استخدمت أيضاً كخلفية يتم الاستناد إليها لتطوير فكرة المركز العتيد والتخطيط لعمله. والدراسة تقدم تقييماً لنسبة الأطفال والشباب الذين تعتبر أوضاعهم عيادية بدرجة معينة، أي يحتاجون إلى خدمات الدعم النفسي. كما تقدم أدوات ومعلومات معيارية تساعد على كشف الحالات العيادية وتقديم تقييم لوضع الأطفال في مدارس معينة. لذلك تقرر أن يكون من نواتج الدراسة أيضاً وضع تقرير موجز لكل مدرسة يعرض الصورة العامة لأوضاع طلابها، مقارنة بأوضاع مدارس أخرى في المنطقة نفسها أو مقارنة بأوضاع لبنان ككل. والقيام بهذا التمرين يفيد المركز العتيد في تقدير حاجات السكان الذين سيتلقون الخدمات، كما أنه سيسهل بناء العلاقات بين المركز والمدارس التي سيقدم لها الخدمات.

شكر

لم يكن لهذه الدراسة أن ترى النور لولا الدعم المالي الذي وفره لها السيد محمد جاسم البحر، ومساندة الدكتور حسن الإبراهيم، رئيس الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، وحماسته لإجراء هذه الدراسة وإنشاء مركز الدعم النفسي للأطفال والشباب. إن التزامه الثابت بتحسين حياة الأطفال في المنطقة العربية على تباين حاد مع قلة تبصر بعض القادة الذين تكون قراراتهم بمثابة حوافز للعنف.

كما نتوجه بالشكر إلى أعضاء اللجنة العلمية الذين بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل إنجاز هذه الدراسة، وإلى جميع المستشارين الذين قدموا مساهمات مهمة وجميع الذين ساهموا بصورة أو أخرى في إنجاز هذا العمل، وبالأخص الآنسة كوزيت معيكي التي ابتدأت كباحثة مساعدة، وبفضل جهودها تطورت مشاركتها فساهمت في كتابة أحد فصول هذه الدراسة.

عدنان الأمين وماريا يابري

المراجع

وزارة الشؤون الاجتماعية وإدارة الإحصاء المركزي (٢٠٠٦). **الأوضاع المعيشية للحرب-الدراسة الوطنية للأحوال المعيشية للأسر**، ص ٣٩.

Assal, A., & Farrell, E. (1992). Attempts to make meaning of terror: Family, play, and school in time of civil war. *Anthropology and Education Quarterly, 23*(4), 275-290.

Bryce J., & Armenian, H.K. (Eds.) (1986). In Wartime: The State of Children in Lebanon. Lebanon: American University of Beirut.

Chemienti, G., Nasr, J.A., & Khalifeh, I. (1989). Children's reaction to war-related stress. *Social Psychiatry and Psychiatric Epidemiology, 24*, 282-287.

Der-Karabetian, A. (1984). *Nationalism and worldmindedness: Japanese verses American comparison*. La Verne, CA: University of La Verne. (ERIC Document Reproduction Service No. ED236104)

Hudson, M. (1968). *The precarious republic: Political modernization in Lebanon*. New York: Random house.

Karam, E., Fayyad, J., Salamoun, M., Debs, M., Tabet, C., Cassir, Y., Cherfane, J., Dimashkieh, M., Dimassi, H., Farah, L., Hage, R., Hajjar, R., Karam, A., Mekhael, L., Mneimneh, Z., Sawaya, L., Siriani, N., Tanios, C., & Tcheurekjian, M. (2007). *Assessment study of psychosocial status of children and adolescents in the South of Lebanon and Southern suburbs of Beirut after the July 06 War (SSSS), Final Report*.

Macksoud, M. (1992). Assessing war trauma in children: A case study of Lebanese children. *Journal of Refugee Studies*, *5*(1), 1-15.

Macksoud, M., & Aber, M. (1996). The war experiences and psychological development of children in Lebanon. *Child Development*, *67*, 70-88.